التقنية العولمية من منظور إبستيمولوجيا التعقيد عند إدغار موران

The Technology of Globalization from the epistemology of complexity by Edgar Morin

La Mondialisation technique selon l'épistémologie de la complexité d'Edgar Morin

بن ابراهيم هدى[1] *

تاريخ الإرسال: 2018/10/24 **تاريخ القبول:** 2020/04/18 **تاريخ النشر:** 2020/12/30

ملخص:

عمل الوعي الغربي على مساءلة المأزق العلمو-تقني المعاصر، حيث شهدنا عدة محاولات تحليلية هدفها تشخيص الحالة المرضِية التي تعيشها الإنسانية، و يعتبر خطاب إدغار موران مساهمة في توضيح المنعطف الأنطولوجي الذي ازدادت حدته خاصة مع ظهور الفاعل الجديد وهو العولمة، من خلال بلورة نمط معرفي-منهجي اصطلح عليه بإبستمولوجيا التعقيد، هذه الأخيرة طرحت ضرورة اعادة صياغة قيم جديدة، آليات فعّالة، تتوفر على إمكانية القراءة الحقيقية للواقع و العمل على اغناء إنسانية الإنسانية، وقد توصلت الدراسة إلى أن الارتباط الوثيق بين التقنية العلمية و العولمة، قد جعل الأزمة التي تعرفها الحضارة الإنسانية المعاصرة تتسم بالكوكبية.

الكلمات المفتاحية: تقنية؛ عولمة؛ إبستمولوجيا؛ أزمة.

Abstract :

Western awareness used to ask the contemporary scientific-technical predicament, where we have witnessed several analytical attempts aimed to diagnose the pathological state of humanity. Edgar Morin's speech is considered to be a contribution to clarify the ontological turn that become more intensified with the emergence of the new actor (globalization) by creation of a cognitive-systematic pattern called epistemology of complexity, which emphasized the necessity to reformulate new values and effective mechanisms that have the ability to realize and enrich humanity. This study concluded that the close connection between scientific technology and globalization have made the crisis of contemporary human civilization characterized by planetary.

Keywords: technology; globalization; epistemology; crisis.

Résumé :

La conscience occidentale a œuvré pour interroger la situation technique et scientifique contemporaine. Dans cette optique, nous avons assisté à maintes tentatives visant à analyser et à diagnostiquer l'état critique dans lequel baigne l'humanité. Dans ce cadre, le discours d'Edgar Morin est considéré comme étant une véritable contribution qui a marqué le tournant ontologique qui s'est intensifié avec l'émergence de la mondialisation. En effet, il a donné naissance à un nouveau modèle cognitif désigné par le concept d'épistémologie de la complexité. Celui-ci a mis au jour la nécessité

*المؤلف المراسل

[1] Houda Benbrahim, university of Constantine 2-abdelhamid mehri-, Algeria, douda4163@hotmail.fr.

de concevoir de nouvelles valeurs et de mettre en œuvre des mécanismes efficaces permettant une lecture efficiente de la réalité en vue d'enrichir davantage l'humanisme de l'humanité.
La présente étude a abouti à démontrer que les rapports d'interrelation entre les techniques scientifiques et la mondialisation ont engendré une crise, de nature internationale, touchant profondément la civilisation humaine.

Mots clés: Technologie; mondialisation; épistémologie; crise.

مقدمة

لطالما سعى الوعي الغربي لإدراك مختلف الحقائق الوجودية التي شكّلت تحديا إبستيمولوجيًا كان لزاما عليه أن يخوض غماره حتى تتحقق له أسطورة التحكم في الواقع بمستوياته المتعددة، لكن بالرغم مما يعيشه العقل الإنساني من تطور وتقدم في خضم هذه المغامرة الأنطولوجية الشاملة من خلال تغييره لسياساته و استراتيجياته التي يتعامل بها مع الوجود، إلا أنه قد نمّى بصورة متوازية رغبات مجنونة كانت دفينة في أعماقه، والذي زادها تأثيرا و فعالية أكثر هو اعتمادها على الآليات و التقنيات العلمية الحديثة، و التي تعتبر بحق مثالا عن الازدواجية الانشطارية التي تعاني منها الحضارة الغربية المعاصرة، على هذا الأساس يعتبر موران "إن التقنيات التي أنتجها الإنسان، مثلها في ذلك مثل الأفكار ترتد ضده وتعرض الأزمنة الحديثة أمامنا تقنية تنقلت من عقالها، بتخلصها من الإنسانية المنتجة لها" (موران، 2007، ص06)، هذه العبارة تلخص بصورة دقيقة موقفه من الخطاب العلمو-تقني المعاصر، الذي ساهم في توسيع الآفاق المستقبلية للإنسانية في بعدها الكوكبي من خلال مختلف التطورات والآليات، وما أدت إليه من تحولات مصيرية شاملة لكل الظواهر الحياتية لدرجة أن الفترة الراهنة تعرف بأنها مرحلة التقدم العلمي و التقني بامتياز.

من ناحية أخرى في خضم استغراق الإنسان لوجوده ومصيره في المنتجات التقنوية، ضيّع ذاته ومعنى حياته، التي أصبح اللامعقول يعبر عن حالاتها، على اعتبار أنه تحول إلى ظاهرة أحادية غير مركبة، حسب تعبير ماركيوز "إنسانا ذو بعداً واحداً"*، هذه الصورة المختزلة والتبسيطية كانت نتيجة تراجع فعالية الوعي الإنساني، وفقدان الذات لقدرتها على البحث عن كينونتها الأصيلة.

وبالتالي فإن هذا الوضع حسب إدغار موران لا يمكن مقاربته إلا من خلال وعي منفتح على معاني الصدفة والفوضى والتناقض والتي تشكل الخصائص الرئيسية المميزة لوجودنا الراهن.

- فما هي أهم التجليات السلطوية التي اتخذها الخطاب العلمو-تقني خاصة في ظل معايشتنا لظاهرة العولمة الكوكبية؟ و كيف أشكل إدغار موران هذا الوجود التقني المعولم، من خلال صقله لمفاهيم التعقيد والتركيب، ليعيد بناء شبكة الحقائق وبنية المعاني الأنطولوجية الإبستيمولوجية والأكسيولوجية المعاصرة ؟.

1- إبستمولوجيا التعقيد كاستراتيجية تشخيصية للأزمة المعاصرة

لقد اعتمد إدغار موران في تحليله للوقائع والخطابات على استراتيجية جديدة متعددة الأبعاد والاتجاهات، فهي تفكيكية، نقدية، تحليلية وتشريحية سطّر لها موران هدفا أساسيا وهو كشف مدى زيف المناهج المعرفية الكلاسيكية وهشاشة مبادئها في تشخيص المأزق التقنو-عولمي المعاصر، من خلال استثمار مفهوم التعقيد كآلية شخّص عن طريقها الأنساق الفكرية التقليدية، التي لم تعد تستطيع مقاومة المد الخطير لتعقد العالم المعاصر، الحضارة المعاصرة والإنسان المعاصر.

هذا النمط المعرفي يعتبر كرد على النموذج الإبستيمولوجي الذي أسسه ديكارت القائم على الفصل بين الثنائيات المتضادة واختزال الكليات في أُطر معرفية محددة، حيث وجد الفكر الكلاسيكي في منظومة التبسيط والاختزال سندا علميا له، عن طريق قيامه على توحيد القوانين العلمية والاعتماد على التفسيرات السببية فضلا عن تجزئة الكائنات المدروسة، وبالتالي فهو يرى أن التعقيد « la complexité » الذي يلاحظ في الظواهر والوقائع، يمكن تفسيره انطلاقا من المبادئ البسيطة "ومن هنا كانت المعرفة العلمية تهتم بتجاوز التعقيد الواضح للظواهر، والتعبير عنها بشكل بسيط" (خليفة، 2015-2016، ص-ص 104-105) هذا ما أدى في نهاية الأمر إلى السيطرة التامة على الطبيعة، بل وتدميرها.

و للخروج من هذا المأزق الوجودي اقترح إدغار موران براديغم جديد قادر على فهم عالم اليوم يجمع بين المتقابلات والتناقضات، و يقضي على التوتر القائم بين الثنائيات المتضادة التي تفصل بين الطبيعة و الثقافة، القيم الروحية و القيم الأدائية، العلم و الفلسفة على هذا الأساس يؤكد إدغار موران أنه لن يكون الخروج من هذا الوضع إلا إذا تحرر الإنسان من الفكر الذي أفضى به إلى هذا التناقض و تجاوز الأطر الضيّقة التي صنف من خلالها مكونات الوجود للانفتاح على الماهية الحقيقية المعبرة عن كينونة الإنسان وليد هذه المفارقات الأنطولوجية، و تبني فكر جديد يضع الإنسان في موقعه الصحيح ما يسمح برؤية جديدة للعالم، خاصة و أننا نعيش وحدة المصير في اطار عالمية التقنيات و عولميتها حيث يؤكد موران "العولمة التقنية بطابعها الغامض تثير في كل مكان توجها نحو الانغلاق" (موران، 2018، ص 21).

في هذا السياق يصرح ليفي ستراوس أن أسلوب المعرفة المعاصر يمنعنا من إدراك التعقيد البشري، لأنها بقدر ما حاولت تحليله فإنها عملت على تفكيكه في تصورات اختزالية وضيقة أكثر مما ينبغي وهذا ما اصطلح عليه بالباثولوجيا المعاصرة للفكر، القائمة على التبسيط الفائق الذي يشوّه الحقائق والوقائع، والذي ساهم في ضياع ملامح الحضارة المعاصرة بكل قيمها وأبعادها.

لهذا كان لا بد من إيجاد بديل معرفي، يمكنه أن يستوعب كل أشكال المعرفة الإنسانية بمختلف مجالاتها و ظواهرها ويترجمها من خلال ضمان وحدتها وترابطها، على اعتبار أن" الرهان هو قلب أسس الكون، بقلب أسس التفكير في الكون" (موران، 2004، ص 6)، وهذا إقرار بفشل الآليات والاستراتيجيات الفكرية المعرفية التي استخدمت لتخليص الفكر من أوهامه وخرافاته ليكتشف أن كل مساعي الانفتاح و التحليلات المنطقية لبلوغ حقائق الأوضاع التي يعيشها من جهة والتي يطمح لأن يحيا في إطارها من جهة أخرى، قد أثبتت عدم جدواها وانعكست سلبا بشكل خطير على مستويات الوعي الإنساني المعاصر الذي كلما أحكم قبضته على زمام الأمور، كلما اكتشف أنها عملية عقيمة غير مجدية.

في مقابل ذلك كل ما يعرفه الفكر في الفترة الراهنة يشير إلى ضرورة التخلي عن كل المعتقدات التقليدية وتبني مناهج جديدة تأخذ بعين الاعتبار مختلف ردود أفعال الإنسان المتناقضة بين الأفكار العقلانية وتطبيقاتها المجنونة، والتي تكشف عن خطورة المنعرجات المعرفية وصعوبة مهمة الفكر الذي وجد نفسه في مفترق طرق مجهول النهاية وعالمية الأبعاد.

في إطار هذه الفوضى الإبستيمولوجية، المنهجية والفكرية الكوكبية نجد إدغار موران يساءل المنظومة المعرفية وآلياتها الكلاسيكية التبسيطية ويفرض ضرورة تغيير الخطاب الإبستيمولوجي واستراتيجياته للانفتاح على عوالم جديدة التشكل سواء من حيث مبادئها وقيمتها أو أبعادها وأهدافها، خاصة وأن العقل الغربي تأكد من عجزه عن السيطرة على التجاوزات الوجودية التي تمارس من طرف التقنية العلمية العولمية الموّجهة ضد الماهية الانسانية.

1-2- الفكر المركب وراهنيته كبديل إبستيمولوجي تفكيكي

يقر إدغار موران بأن "رحى المعركة اليوم تدور على صعيد الفكر" (موران، 2009، ص 5)، وبالتالي علينا أن نفهم طبيعة الفكر السائد والخطاب المتداول والعمل على تفكيكه ونقده حتى نستطيع إيجاد بديل له، والمقصود هنا الفكر التبسيطي الذي عمل على تجزئة الواقع الوجودي وتفتيت طبيعة الإنسان حارما إياه من الغنى المتعدد الأبعاد، وتهميش كل ما من شأنه أن يزيد في غموض الإنسانية حتى وإن لامست هذه الممارسة بتر العديد من أجزاء الكينونة الوجودية للذات.

إن التعقيد المستمر للعالم هو الذي يفرض تفعيل استراتيجية معينة وهذه الإستراتيجية لابد لها من فكر قادر على التكيف مع طبيعتها، وهذا ما اصطلح عليه موران بالفكر المركب والذي يعتبر كرد فعل أو ثورة على الخطاب الكلاسيكي و الفكر التجزيئي الذي فصل الإنسان عن طبيعته وماهيته الأصلية المغتنية بتناقضاتها، ذلك أن الأمر حسب إدغار موران يتعلق بإعادة ربط ما تم تفكيكه وتشتيته من خلال تطوير القدرات الإبداعية للإنسان خاصة في الفترة الراهنة، إذ أننا نلج مرحلة تتداخل فيها الأزمات بمختلف أنواعها، ما يجعل الإنسانية على حافة الهاوية إن لم تغير في سياستها، أخلاقها وتقنياتها الراهنة.

فإذا كانت مهمتنا تتركز في زيادة الوعي الذي يتيح المراقبة النقدية للوقائع الزائفة، فإن الفكر المركب يشكل نقطة انطلاق نحو فعل أكثر ثراء وأقل تشويها، هذا الفكر لم يعد يتعامل مع المعرفة والواقع فقط بل مع المستقبل ومحاولة صناعته بشكل مغاير على الصعيد التقنو-انساني.

وقد حدد ماهية الفكر المركب بقوله: "مجموع العلوم والمباحث وقد توحدت في أفق ومشروع واحد هو أفق التعقيد" (موران، 2004، ص 7)، وهذا يعني أن كل العلوم يجب أن تجدد من مبادئها وأسسها ومصادراتها بشرط ألا تكون رؤيتها اختزالية ومنهجها تجزيئي بل أن تحاول الاعتماد على الآليات الفعّالة التي بإمكانها ربط ما تم قطعه وتجميع ما تم فصله.

كما يضيف موران في هذا الصدد، بأن "مهمة الفكر المركب، تتجلى في تغيير هوية العالم" (موران، 2004،ص 7)، هذه المهمة التي أوكلها موران للفكر المركب باعتباره وحده القادر على إستعاب تعقيد الوقائع والمعارف، هذه الفكرة المحورية تعكس التأثر الموراني بالفلسفة الماركسية فإذا استقرأنا تاريخ الفكر الفلسفي نجد أن الخطاب الماركسي أقر بأن عهد الفلسفة

التأملي قد ولى، ولم يعد له أي أهمية أو ضرورة أمام التطورات العلمية المتسارعة بل يجب عليها أن تحاول تغيير الواقع، وهذا لا يتم إلا من خلال إعادة صياغة علاقتنا بالوجود.

وبالتالي فإن موران يقر بأن العلم يحتاج إلى فكر يمكنه احتواء تنوع وتناقض الواقع من جهة، وعدم إلغاء التناقضات الفعلية التي تشكل كيان البشرية، من هذا المنطلق يعتبر موران أن الفكر المركب له القدرة على اكتشاف الثغرات الأنطولوجية التي تعاني منها الحضارة المعاصرة من خلال تجاوز مختلف التصورات النمطية التي شكّلتها الابستمولوجيا الكلاسيكية ومقولاتها العقيمة، التي استغرقت الجوانب المتنوعة للوجود في بعد فقير واحد مما جعل تاريخ الانسانية يدخل في مرحلة احتضار حيث يؤكد موران "لقد دخل تاريخ الانسانية في صراع شبه نهائي بين قوى الموت و قوى النهضة، نفس الامر بالنسبة للعولمة الحالية، فهي تمثل أسوأ الأشياء و من ناحية أخرى أبرزت الحاجة الى العيش المشترك" (موران، 2016، ص-ص 63)، على هذا الأساس حدد موران أهم المميزات التي تشترط في الفكر المركب حتى يكون وعيا متجانسا واستراتيجية فعّالة، تعمل من أجل المحافظة على وحدة الوجود الأصلية بمختلف سياقاته وأبعاده وتناقضاته فهو فكر متعدد الأبعاد، على عكس الفكر التبسيطي الذي يعتبر أحادي البعد، كما أن الفكر المركب فكر استراتيجي لأنه يهتم بوضع الآليات المناسبة مع الطبيعة المعقدة للعالم بالإضافة إلى أنه فكر منظم يدرك أبعاد الإنسان المتناقضة و يؤلفها في نسيج منفتح على كل العمليات التغييرية القادرة على إحداث تحولات جذرية، ذلك أن الوعي الجديد هو الذي سيعمل على بزوغ الإنسانية من حيث هي إنسانية واحدة ومتعددة في آن واحد فينظر إليها ككيان متناسق ومنسجم بالرغم من احتواءها على المتناقضات والمتعارضات. هذا يتحقق من خلال الوعي المتفكر و المبتكر والممارس لاستراتيجيات إدراكية تمتلك القدرة على تجاوز كل ما من شأنه أن يعترض السيرورة الأنطولوجية، وعلى الشك البنّاء الذي يعزز روح الانفتاح والحس الواعي بالمصير الواحد المشترك العالمي من ناحية و العولمي من جهة أخرى، لكن بشرط أن تنسجم داخل وحدة تتفاعل فيها كل هذه العلاقات المتكاملة التي تشكل ماهية عالمنا، الذي أخذت ملامحه تتشوه و ديناميكياته تتقزم بصورة مخيفة حيث نشهد تخلفًا إنسانيًا قيميًا يقابله تطورًا تقنيًا عولميًا، مما يجعل كل شيء و أي شيء قابل للحدوث مستقبلا.

2- المراجعة الفلسفية لأزمة التقنية العلمية عند إدغار موران

يعتبر إدغار موران أن على "الفكر الإنساني مساءلة هذا القرن الذي هو في حالة احتضار" (موران، 2009، ص 20)، هذه الدعوة إلى الممارسة الإستشكالية الموجّهة نحو الواقع من شأنها توضيح الأسس التي إنبنى عليها الوجود في صورته الزئبقية المعاصرة والتي تعرف اختلالات بالجملة بين مختلف أطراف معادلاته والعلاقات التي يمكن أن تنشأ بينها.

وتندرج نظرة إدغار موران إلى التطور العلمو-تقني ضمن موقفه النقدي لمنظومة الحداثة الغربية، هذه الحداثة التي بدّلت وحوّرت معالم الوجود الإنساني، في هذا السياق يقر موران بأنه "إذا كانت الحداثة تتحدد بما هي إيمان غير مشروط بالتقدم في مجالات التقنية والعلم، فيمكننا القول أن هذه الحداثة قد ماتت" (موران، 2002، ص 65) وهذا يوضح أن معايير التقدم والتطور لم تعد تعكس حداثة الإنسان المعاصر، بقدر ما تمثل مشروعا يوتوبيا بعيد بسنوات ضوئية عن التشخيص الواقعي و التجسيد الفعلي.

– فما هي أهم المحطات النقدية التي وقف عندها إدغار موران للخطاب العلمو–تقني في ظل فكرة ومبدأ التعقيد؟

2–1– التصور الموراني لماهية التقنية العلمية

يرى إدغار موران أن أصل ظهور الآلة، يرجع بالدرجة الأولى إلى الضرورة والمنفعة حيث أن الإنسان عندما أراد بلوغ مصالحه وتحقيق منافعه الخاصة والعامة اعتمد على مختلف الآليات التي تسمح بذلك، ثم بعدها حدث التطور التقني في المجتمعات الحديثة ونمّت التقنية بعد أن أصبحت هي أداة التسلط إرادة ورغبة السيطرة، فضلا عن ذلك كان التطلع إلى الخلق وحلم الطيران في الجو والغوص في البحار وحلم الوصول إلى النجوم، حافزا ودافعا كبيراً للعديد من الاختراعات التقنية.

وعليه فإن التقنية في اعتقاد موران "لم تنبثق عن حاجات مادية حسية أو مصالح نفعية فحسب، وإنما انبثقت أيضا عن الذهان الهذياني، والرغبة والحلم" (موران، 2009، ص 254)، و هذا يعني أن التقنية عند إدغار موران لا تتمثل في تلك المنجزات والاختراعات التي تشكل الجانب الإجرائي التطبيقي للنظريات العلمية، وإنما هي أكثر من ذلك أصبحت عامل تحريك وتغيير، و هو عامل محوري ومفصلي، فرض وجوده وقدراته على جميع جوانب الحياة دون استثناء ليؤكد على أنه عالم حقيقي يدل على طراز كوني سمته الأساسية "الهيمنة التقنية" (بودريار، موران، 2005، ص 85) وهذا يعني أن التقنية عند إدغار موران قد مثّلت منعطفا وجوديا حاسما، ازدادت شدة انحداره في الفترة المعاصرة وخاصة مع ما نلمسه من تحوير وتبديل للمعايير والقيم الإنسانية، حيث يؤكد موران أن التقنية قد مارست القطيعة الأكسيولوجية على مستوى الإمكانات الوجودية و الإبستيمولوجية، مما انجر عنه إقصاءات مختلفة للعديد من مستويات الواقع والوجود الذي أصبح يعرف فراغا من حضور الإنسان كذات فاعلة والذي يعود بالدرجة الأولى إلى هيمنة العقل الأداتي الاستعمالي، كما يقر إدغار موران بأن: "آثار العلم ليست بسيطة، إذ ليس هناك علم جيد وعلم سيء، وإنما هي آثار متناقضة للغاية" (Edgar Morin, 1990, p9)، من هذا المنطلق نلمس أن موران لا يدين العلم ولا يتهم التقنية إذ ليس هناك تقنية جيدة وتقنية سيئة، و إنما يدين البراديغم الذي ساهم في انقطاعات حضارية وتاريخية، زادت في غموض العالم و الوجود أكثر من توضيح ملامحه، حيث لم يعد الوعي الإنساني المعاصر قادر على تمثل كل أبعاده و لا التحكم فيه، و هذا ما زاد من شعوره بالاغتراب والتشيؤ اللذان أصبحا يشكلان مقولتان أساسيتان من مقولات الوجود المعاصر.

كما يشير إلى "أننا نرى مستقبلا أفضل من خلال الوسائل التي ستتيح التخلص من التخلف الضار والعجز في قدرات الإنسان، وفي المقابل نرى مستقبلا مشؤوما من خلال اعتبار الإنسان مجرد بضاعة" (موران، 2009، ص253)، للعلم والتقنية، وهذا ما يمثل تجسيدا لتطور الوعي الإنساني من فكر محرر للإنسانية إلى فكر مقيد لها، كما أنا مساءلة هذا التحوير والتبديل الذي طال القيم و المعايير يضعنا في مقابل إدراك "الدور الذي كان يمكن للعلم والتقنية أن يلعبانه لدى البشرية وهي تعيد تشكيل ذاتها كلية منذ عصر النهضة" (موران، 2009، ص 295) إلا أنهما قد فقدا هدفهما وغاياتهما، وتم اختزالهما في أُطر معرفية محددة وعلى الفكر مراجعة مبادئه وآلياته، قبل انفجار القنبلة الموقوتة التي تشهد عدا تنازليا يحمل خطراً إنسانياً، كوكبياً وحضارياً ينبئ بفنائها وانقراضها.

كما يعتبر إدغار موران أن "بربرية العقل كانت نتيجة انتشار العلم بعيداً عن الوعي" (هوسرل، 2008، ص 46)، أي أنه قد تطور وتقدم في اتجاه معاكس تماما للضبط القيمي الأخلاقي و المعياري، بالرغم من أن تطور التقنيات يعتبر "شأنه

شأن أي تطور آخر، يبدأ هامشيا على الدوام، ثم بعد ذلك خلال القرن العشرون، إلتحم العلم والتقنية ليشكلا التقنية العلمية" (Edgar Morin ,1990, p13)، حيث يصعب فصل أحداهما عن الآخر، هذا الارتباط الوثيق بينهما قد سمح بإتاحة إمكانات التقدم من جهة، وإمكانات القضاء على الإنسانية والموت الجماعي من جهة أخرى، إن هذه الرؤية الخاصة للتقنية العلمية تصورها كاستراتيجية تخطيطية تمارس تحايلات على الوجود الإنساني، ما يستلزم وعيا مضاعفا في قراءة معالمها وتعبيراتها وفك رموز دلالاتها المعقدة، حتى وإن كانت تبدو في ظاهرها موقفا استعماليا، إلا أنها في جوهرها تحمل عدة مبادئ ونوايا خفية لا مفكر فيها حسب تعبير ميشال فوكو، والتي تحكم التقنية العلمية وتوجهها و كانت السبب الرئيسي لاستفحال الوعي الزائف بالمعنى الماركسي وطغيانه على جميع أنماط التفكير مشوّها ومقزّما حقيقة الوجود وأصالته، مما خلق شبه إنسان أو ذاتا مختزلة الأبعاد والملامح لا تستطيع إدراك ذاتها ولا ماهيتها الحقيقية.

وبالتالي فإن الوضع الراهن الذي قذفتنا فيه التطورات العلمو-تقنية، كان ذو تكلفة إنسانية عالية جدا، على اعتبار أن الهمجية التقنوية حسب إدغار موران "تجهل إنسانية الإنسان، أي أنها تجهل حياته، مشاعره ومعاناته" (موران، 2012، ص 43) و هذا ما تؤكده مختلف الحالات النفسية والسيكولوجية التي يعاني منها الإنسان المعاصر من اغتراب وتشيؤ، قلق ويأس وتشاؤم، ويؤكد إدغار موران أن مرض الحضارة الغربية المعاصرة ناتج عن أخطاء العزل والتبسيط والاختزال، وترجمة هذه الأخطاء كلها إلى ما يسميه إدغار موران بالحالة المرضية للمعرفة الإنسانية والتي من خصائصها الأساسية التحليل التجزيئي والتفكيك القطعي والفصل الوجودي الذي فرض واقع "أن العناصر التي يجب أن تكون في حالة توافق، هي في حالة انفصال تام" (مؤلف جماعي، 2009، ص 104) و هذا ما يؤكده الواقع التطوري للعلم والتقنية المعاصرة، التي لم تدرك حجم الفجوة الأنطولوجية و الأكسيولوجية التي تسببت في إحداثها وفرضتها على الوجود الإنساني الذي أصبح حضوراً سلبياً مستَلباً، حال دون تحقيق عملية التذوتن، حيث تحولت الذات بعد التأثيرات الكبيرة التي أُسقطت عليها إلى موجود مادي فارغ روحيا وقيميا تشبه إلى حد كبير الأصنام التي تعبر عن معنى الثبات السلبي وانعدام القدرة على الفعل والتعبير والفعالية.

هذا التصور حسب موران عبارة عن رؤية فقيرة ومختلة عملت على تفسّخ الواقع وتشويه المعرفة، على هذا الأساس يعتبر أن المعرفة الكلاسيكية تأسست "وفق نموذج تبسيطي، ينظر إلى أي تعقيد بمثابة مظهر سطحي، وغموض ينبغي حله" (موران، 2004، ص15)، وهذه أهم المسلمات التي أقام عليها ديكارت صرح فلسفته، مما أدى إلى ابتعاد الفكر عن التصور الشمولي و النظرة الموسوعية للوجود حيث شهدنا إما واقعا ماديا متعاليا عن المبادئ الأخلاقية للإنسانية، أو قيما معيارية متجاوزة لمادية العالم المعاصر، لكن أن يكون هناك واقعا إنسانيا مزدوجا يدرك التغيرات ويمتص التناقضات فهذا هو الرهان الذي اقترحه إدغار موران والذي يجب على الإنسانية تجنيد كل إمكانياتها وقدراتها وآلياتها في سبيل اكتسابه وتحقيق الربح الإنساني الأنطولوجي، الإبستيمولوجي والأكسيولوجي في ظل تطورات علمو-تقنية فعّالة تعمل على زيادة الالتحام والارتباط بين هذه الأبعاد في صورتها الشمولية.

2-2- التقنية العلمية في بعدها العولمي

إن العولمة*****واقعة العصر وحدث يومي معاش، يتغير معه نمط الحياة وهي مصطلح قد دخل سوق التداول الفكري وأصبح أكثر رواجا على الساحة الثقافية، باعتبارها جملة عمليات تاريخية متداخلة تتجسد في تحريك المعلومات والأفكار والأشياء وحتى الأشخاص والناس، على نحو يجعل العالم واحداً أكثر من أي مرحلة تاريخية سابقة، من هذا المنطلق يمكن اعتبار العولمة استراتيجية تسفر عن أشكال جديدة للتواصل والتفاهم.

وبالتالي فإن أول خطوة في كيفية التعامل مع العولمة: "هي ضرورة فهمها فهما جيداً" (إسماعيل، 1993، ص 349) باعتبار أن لها أصولها التاريخية، كما لها أسبابها الموضوعية، وعواملها التي دفعت إلى إفرازها عبر مراحل بلورة المفهوم وتشكل ملامحها.

فإذا كانت قد ارتبطت في أصولها الأولى من ظهورها ونشأتها بعالم الاقتصاد والمال بشكل خاص، فإن الميل يزداد اليوم في الأوساط الدولية إلى طرح قضية العولمة في ارتباطها بعالم الثقافة والمعايير القيمية والمبادئ الأخلاقية حتى تتناول بالتحليل والتفكيك للكشف عن أبعادها، آثارها وأهدافها وبالتالي علاقتها سواء بالإنسان كفاعل قاصد أو كذات مقصودة، خاصة أمام ما تعرفه من تطورات متسارعة تعكسها مختلف التقنيات المعاصرة، وهذا يعني أن ما فتحته العولمة من الإمكانات الهائلة بأدواتها الفائقة وشبكاتها العنكبوتية ووقائعها الافتراضية، قد باتت معطيات لا غنى عنها في فهم الواقع وإدارته وتغييره لإعادة تركيبه وبنائه، فهي قد غيّرت نظرة الإنسان تجاه ذاته وبدّلت موقعه في العالم، بقدر ما غيّرت علاقته بمفردات وجوده، سواء تعلق الأمر بالمعرفة والثقافة والهوية، بالسلطة والحرية أو بميكانيزمات القوة والهيمنة ،هذا التحول الهائل والجذري قد شكّل فرصة وجودية أمام المجتمعات العالمية لكي تمارس حيويتها وتستعيد مبادرتها لكي تشارك في صناعة العالم بصورة إيجابية.

على هذا الأساس يعتبر موران "أن العولمة واحدة ومتعددة في نفس الوقت، فالعولمة عولمات: العولمة الاقتصادية، الثقافية، عولمة الأفكار الديمقراطية والإنسانية والعولمة التقنية" (موران، 2012، ص 65)، هذه الأخيرة هي أكثر أشكال العولمة تأثير وفعالية حيث يمكن اعتبارها "الطور النهائي في سيرورة التكوكب، ويمكن اعتبارها في الوقت ذاته ظهورا لبنية تحتية لنوع جديد من المجتمع، ذلك هو المجتمع العالمي" (موران، 2012، ص 66) وهذا معناه أن العولمة مشروع لم يكتمل بعد و لم يتحقق كلية، حتى وإن كانت قد تبلورت وتشّكلت كظاهرة وحدث كوني إلا أنها عرضة للتغيير، كما أنها نتيجة طبيعية لمسار تحولي وتراكمي للحداثة وثمرة لمنجزاتها، وقد برزت بصورة أكثر بعد أن أخفقت الحداثة في تحقيق رهاناتها الكبرى على مستوى العالم، ولكنها بقدر ما هي تعبير عن رغبة الإنسان في التواصل مع الأفراد الذين يشاركونه هذا الوجود، فهذا التقارب متوقف في نهاية الأمر على ما نفعله جميعا لتوجيهه وبالتالي يمكن اعتبار العولمة " أنموذجا حضاريا جديدا لثقافة جديدة ذات انعكاس عالمي" (ماتلار، 2008، ص 40) هذه الثقافة يجب أن تكون أكثر مرونةً وتفاعليةً، قائمة على الانفتاح والتواصل والتبادل بين الحضارات و الثقافات، وهذا "ما يسمح بتفعيل إمكانيات التعايش" (وولتون، 2012، ص 14).

إلا أننا إذا استقرأنا تاريخ تشكل ظاهرة العولمة، يتضح أن لها وجهان مختلفان تماما إيجابي و سلبي، فهي من جهة تعتبر مشروعا حضاريا كوكبيا يهدف إلى تحديث وعصرنة الدول على المستوى العالمي وفي مختلف المجالات الحياتية والأبعاد

الوجودية من خلال العمل على إصلاح مسار حوار الحضارات و التعايش بين الدول والشعوب، أما من جهة أخرى وهو جانبها السلبي فهي تشكل إيديولوجيا جديدة ومنمّقة، أو نوع من الديكتاتورية الجديدة، التي عملت على زيادة العنف والوحشية التي تميزت بها الحضارة الأوروبية والأشد خطورة أنها قامت بعولمة هذه البربرية على المستوى العالمي الكوكبي، على هذا الأساس يعتبر موران أن "العولمة التي كانت في بداية القرن العشرين تندرج في سيرورة مزدوجة من هيمنة / تحرر" (موران، 2012، ص 65)، هذا النمط الثنائي يكشف عن عدم براءة العولمة، فهي قد ساهمت في تمكين الإنسان من الآليات التي من خلالها يفرض سيطرته على الوجود و الطبيعة واستثمار هذه الهيمنة بالصورة التي تسمح أكثر بالتحرر من الأُطر المغلقة و التصورات النمطية.

في هذا الإطار نجد نعوم تشومسكي يفرق بين العولمة المطروحة الآن و التي يرى بأنها وسيلة الأغنياء لنهب ما تبقى لدى الفقراء وتدعيم سلطتهم على العالم، و في مقابل ذلك يوضح بأن العولمة التي يدعو إليها هي " العولمة التي تضع حقوق الناس الذين هم من لحم و دم على رأس أولوياتها " (تشومسكي، 1998، ص 99) ذلك أن خضوع الإنسانية لتاريخية واحدة يعني أنها تجري في سياق اجتماعي وسياسي وثقافي موحد، وهذا ما يجب على العولمة اتخاذه كبنية تحتية تنطلق من خلالها.

كما يرى إدغار موران "أن سيرورة العولمة تعتبر أسوأ شيء—إذ باتت تحط من شأن التسابق صوب الهاوية بعد أن أطلقته— وهي أفضل شيء— فلأول مرة في التاريخ يمكن لنا المصير الأرضي المشترك أن نتصور أرضا وطنا، لا تلغي أوطاننا بل تجمعها وتحتويها—"(موران، 2012، ص5)، فإن كان عصر العولمة قد جعل الحدود الفاصلة بين تنوع الثقافات، تعدد الحضارات و مختلف الشعوب تتداخل و تتشابك وتتفاعل بل وتتلاشى، فإنه من خلال التقنيات قد أصبحت هذه الحاجة ملحّة أكثر وعلى الصعيد الكوكبي بالرغم من فقداننا لسياسات إنسانية، أخلاقيات و قيم إنسانية تسمح بتفادي الفناء الكوني الذي فتحت العولمة التقنية والتقنية العولمية أبوابه على مصرعيها.

وبالتالي فإنه لمواجهة تحدي العولمة، يكمن الحل في العمل على مراجعة المنظومات الثقافية الاجتماعية و السياسية والاقتصادية وخاصة الفكرية، وإعادة بناءها من خلال اكتساب استراتيجيات تستند على مرجعيات معيارية، كالاعتماد على الذات، و الإحساس بقيمة الدور الذي نقوم به في إطار التاريخ وتفعيل قدرات الإنسان على تحمل مسؤولياته الكوكبية والعمل على إبداع مفاهيم وتصورات جديدة، ذلك أن التعامل مع روح العصر الذي عماده العولمة بمختلف مظاهرها خاصة التقنية يتطلب تفعيل الوعي الحقيقي المعبّر عن طبيعة الإنسان المدركة لشروط وجودها.

إن العولمة قد فتحت أمام الإنسان عوالم ذات قيم وجودية جديدة وتطوراً حضارياً أصبح فيه مصير الإنسانية موحداً، وهذا هو الرهان حسب إدغار موران الذي يجب تجنيد مختلف الاستراتيجيات الحضارية والإنسانية لكسبه، في مقابل ذلك إذا كانت العولمة قد غذّت نزعة العنف لدى الإنسان فقد حان الوقت لإضفاء الطابع الإنساني عليها لتفادي العديد من التداعيات التي تشبه إلى حد بعيد فتح صندوق باندورا المرعب.

3- النتائج ومناقشتها

إن محاولة إدغار موران معالجة الأزمة الإنسانية الراهنة، كان من خلال تفعيل مقولة التعقيد كفاعلية مركزية بنّاءة لها ثلاث مراحل: بداية من تبني مبدأ الانفتاح على العالم بالشكل الذي يسمح بتمثله بمختلف أبعاده، ثم مراجعة طبيعة العلاقات الوجودية الحضارية من خلال تفكيك الأنساق الدوغمائية المغلقة، وصولا إلى تجديد المبادئ و الأسس بصورة أكثر إنتاجية تتيح للفكر الفعالية التي يتمثل من خلالها إمكاناته الكوكبية، من هذا المنطلق تضمّن البحث العناصر و المراحل التالية: بداية التشخيص الفلسفي الموراني لأزمة التقنية، ثم الكيفية التي اعتمدها موران لإعادة تموقع الإنسان المعاصر في عالم متعقد بعد تغييب تهميشي تبسيطي، و أخيرا التفاعل الكوكبي للتقنية و العولمة و مختلف الانعكاسات التي انجرت عنه، ليصل البحث للنتائج التالية:

– استراتيجية إدغار موران أشبه بمنطق توليدي تعمل على تغيير آليات الفكر من خلال مستويين: نقدي تحليلي تفكيكي، ومعرفي أنطولوجي.

–المنعطف الأكسيولوجي الذي عايشته الحضارة المعاصرة، قد ساهم في إعادة صياغة مختلف العلاقات الإنسانية والكونية من جهة والذاتية العالمية من جهة أخرى، خاصة مع ارتباطه بالتقنية والعولمة ومختلف الإنتاجات المجنونة التي كان الإنسان العاقل منتجها.

– الإفرازات التدميرية التي انجرّت عن سوء الفهم البشري لعملية التطوير والتطور الحضاري، التي وصلت لمرحلة التدمير الذاتي ما فتح المجال أمام ضرورة التأسيس لعقل، سياسة وأخلاق بإمكانها منحنا القدرة على إنقاذ ما يمكن إنقاذه في عالم يعرف فقرا مدقعا من كل ما هو إنساني.

خاتمة

لقد عرفت التقنية عدة تحولات جذرية، كانت على مستوى علاقتها بالوجود في ازدواجيته سواء طبيعيا أو ذاتيا، وهذا ما يؤكده الواقع الذي شهد انقلابا في صيغة التقنية من أداة تحرير إلى وسيلة هيمنة على الوجود الإنساني، وتعتبر معالجة إدغار موران للأزمة الإنسانية الراهنة، من خلال تفعيل إبستمولوجيا جديدة المبادئ، الماهية والهدف، حيث تمثل نمط معرفي وجودي وقيمي جديد مبني على مبدأ الانفتاح على العالم في صورته الشمولية فهي وإن كانت تشكل قراءة نقدية تحليلية تفكيكية، للأطر المحدودة التي لا تكتفي بالنقد فقط، وإنما تعمل على إعادة وصله وتضمينه، وتجميع كل المفاهيم والمقولات التي همّشت واستبعدت من الحقول المعرفية السابقة .

مع الأخذ بعين الاعتبار المنعطف التقني الذي أدى إلى تبديل المعايير والقيم الإنسانية، موجّها ضربة مميتة للوجود الإنساني من خلال ممارسة القطعية الأكسيولوجية على مستوى الإمكانات الوجودية و الإبستيمولوجية وواجب الإنسان يكون من خلال إعادة ربط ذاته بواقعه، وتبني استراتيجيات وآليات تفسر طبيعة الواقع المعقد بمعطياته و المتشابك بعلاقاته الإنسانية والحياتية، وهذا ما يجعل الرهان على العولمة يتخذ أبعادا و تجليات مستقبلية تساهم من خلاله مختلف الحضارات و الثقافات في تفعيل الشعور بالمصير المشترك، باعتبارها تحدٍ كوني يمكنه أن يسمح بافتتاح مناطق جديدة للفكر تتيح إقامة علاقات متجددة مع الوجود والمعرفة، الذات والعالم، هذه العلاقات تكون حوارية منفتحة، وتبادلية تمثل قاعدة حقيقية لكل الرهانات

الكوكبية التي من شأنها جعل التقنية العولمية حدثا حضاريا بامتياز يتجاوز كل ما من شأنه عرقلة مسار التعايش و المعايشة الكوكبية الأصلية وهذا هو المكسب الإنساني الحقيقي.

قائمة التهميش

*- تعود هذه المقولة إلى أحد أبرز أعضاء مدرسة فرانكفورت، ماركيوز، الذي ألف كتابا عن خصائص الإنسان المعاصر، مبينا ماهيته وأسباب اغترابه، كالنظام الرأسمالي والتكنولوجيا اللاعقلانية.

*****- العولمة : يقابلها مصطلح " globalization" المشتقة من " global " في اللغة الإنجليزية، والذي يعني : الكرة الأرضية أو الكوكب الذي تعيش البشرية على سطحه.

ينظر إلى Hsouthanov Anne, 1999 , Encarta world English dictionary، first Edition, new York, p: 982.

أما في اللغة الفرنسية فهي تقابل كلمة: " MONDIALISATION " المشتقة من " MONDE" والتي لها نفس المعنى في اللغة الإنجليزية بمعنى: الكلية وجعل شيء ما على مستوى عالمي.

ينظر إلى:.Du bois jean,1994, larousse dictionnaire de la langue François, lexis Edition, larousse, p:1178

قائمة المراجع باللغة العربية:

- بودريار جان، موران إدغار، 2005، عنف العالم، تر، إبراهيم محمود، ط1، سوريا، دار الحوار.
- بياجيه جان، 2004، الإبستيمولوجيا التكوينية، تر، السيد نفادي، بيروت، دار التكوين.
- خليفة داود،2015-2016، إبستيمولوجيا التعقيد، دراسة لبراديغم التعقيد والفكر المركب عند إدغار موران، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة، قسم الفلسفة، جامعة وهران، الجزائر.
- عبد الفتاح عبد الكافي إسماعيل، 2004، معجم مصطلحات عصر العولمة، ط1، القاهرة، الدار الثقافية للنشر.
- لقاط زيتوني صورية، 2015، إبستيمولوجيا التركيب وفلسفة التربية عند إدغار موران، ط1، دار الأيام.
- ماتلار أرمان، 2008، التنوع الثقافي والعولمة، تر، خليل أحمد خليل، ط1، لبنان، دار الفارابي للنشر.
- محمد إسماعيل فضل الله، 1993، الإيديولوجيا وفلسفة الحضارة، ط1، الإسكندرية، مكتبة بستان المعرفة.
- موران إدغار، 2002، تربية المستقبل، تر، عزيز لزرق ومنير الحجوجي، ط1، المغرب، دار توبقال للنشر.
- موران إدغار، 2004، الفكر والمستقبل مدخل إلى الفكر المركب، تر، القصوار أحمد والحجوجي منير، ط1، المغرب، دار توبقال للنشر.
- موران إدغار، 2009، النهج الإنسانية البشرية، الهوية البشرية، تر، هناء صبحي، ط1، أبو ظبي، دار الكلمة.
- موران إدغار، 2009، إلى أين يسير العالم ؟، تر، أحمد العلمي، ط1، بيروت، الدار العربية للنشر.
- موران إدغار، 2012، هل نسير إلى الهاوية؟، تر، عبد الرحيم حزل، المغرب، إفريقيا الشرق.
- موران إدغار،2007، ثقافة أوربا وبربريتها، تر، محمد الهلالي، ط1، المغرب، دار توبقال للنشر.
- موران إدغار، رمضان طارق، 2016، خطورة الأفكار، تر: محمد صلاح شياظمي، المغرب، دار افريقيا الشرق.
- موران إدغار، 2018، في مفهوم الأزمة، تر، بديعة بوليلة، ط1، بيروت، دار الساقي.
- مؤلف جماعي، 2009، القيم إلى أين؟، تر، زهيدة درويش جبور، بيروت، منشورات اليونسكو.
- هوسرل إدموند، 2008، أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندتالية، تر، إسماعيل مصدق، ط1، لبنان، المنطقة العربية للترجمة.
- وولتون دومينيك، 2012، الإعلام ليس تواصلا، ط1، لبنان، دار الفارابي للنشر.

قائمة المراجع باللغة الأجنبية:

-Du bois jean, 1994, Larousse dictionnaire de la langue français, lexis Edition, Larousse.
-Hsouthanov Anne, 1999, first Edition, new York, encarta world English dictionory.
-Morin Edgar, 1990, science avec conscience, librairie Artheme Fayard, Edition du seuil.
-Morin Edgar, 1999, l'intelligence de la complexité, paris, Edition
L'Harmattan.